فما هي هذه القيم القديمة ؟

يعطي العقاد في وصف واسع للعصر الاسلامي الاول تحت عنوان « العبقريات » ، تمجيدا « للشخصية العبقرية » التي تمتع بها الخلفاء الاوائل . ويبدو فكـــره الديني العميق ، ولصالح القديم ، عندما يعارض العالم الواقعي بعالم وهمي روحاني مجرد : « وللعباقرة على الجملة ولع بعالم الغيب ، وخفايا الاسرار ، على نحو يلحظ تارة في الزكانة والفراسة ، وتارة في النظر على البعـــد ، وتارة في الحماسة الدينيـــة او في الخشوع لله »(٢٥).

هذه التصورات تدور حول قيم شخص نادر واستثنائي ، كذلك فان رؤية الكاتب للعالم تتركز حول الأنا . وعندما يصف حياة عمـــر يستعمل مقولات مثـــل هذه : « عبقري ـــ رجل ممتاز ـــ صفاته ـــ مفتاح شخصيته ... الخ » (٢٦).

ان الميزة الرجعية لهذا الجمال تكمن اولا في التعارض والتناقض القائمين بين الفرد ومجتمعه ، وثانيا في تقييم الخواص الارستقراطية المقنعة (من قناع) تحت شكل اخلاقي ارستقراطي . وقد أحس المنظرون العرب بقوة ، بانحطاط وسقوط هذه القيم الجمالية كنتيجة مباشرة للتحولات الاجتماعية : « وكان لا بد لأية تحولات في الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي باتجاه اسقاط هذه السلطة من أن تؤدي الى اسقاط سيطرة الكلاسيكية على الشعر العربي المعاصر »(٢٧).

ولنكمل هذه اللمحة حول علم الجمال الكلاسيكي الذي أصبح بالنسبة لوقتنا الحالي رجعيا (بمعنى انه يعمل مباشرة او لامباشرة بواسطة قيمه الماضية ضد قيم حقيقية تاريخية جديدة) نضيف الكاتب خليل السواحري مثلا آخر . فهو يختار ابطالا لقصصه بعض الفلسطينيين الهامشيين ، ويدّعي انهم ممثلون للشعب الفلسطيني بأكمله ، وهكذا يعطي صورة زائفة وخاطئة لشعب مسحوق وشجاع ، ويساهم بهذا المعنى في السياسة الرسمية للنظام الاردني الرجعي ، والتي تقوم على انكار تقدم واستقلال الشعب الفلسطيني (لاسباب الالحاق والضم).

في قصة « مقهى الباشورة » آثر السواحري نذالة المعلم ابو بلطة ، الذي حول مقهاه الى صالون استقبال لمجموعة منحطة من الصهاينة . وعندما تحتم على المعلم دفع ضرائبه الثقيلة ، ذهب الى سكان حي الباشورة في القدس ليطلب النصيحة . فاقترحوا عليه ان يشنوا اضرابا جماعيا لدعمه ضد قوات الاحتلال ، لكن المعلم يرفض ذلك ، ويفضل بيع الحشيش للصهاينة قصد تغطية المبلغ المطلوب منه . وبعد ان تمت الصفقة « شربوا القهوة على حسابه ، وتمازحوا ، وتضاحكوا ، وضرب المعـــلم الفتـــاة (الصهيونية) على فخذيها ، وحين غادروا المقهى، كان ابو بلطة يودعهم عند الباب ، فغدا سوف يدفع الثلاثة آلاف ليرة بأكملها »(٢٨).

وفي مكان آخر من القصة ، تكشف زوجة المعلم عن تخاذلها بهذا القول : « ايـــام الجدعنة راحت يا معلم ، اليهود اليوم ضبطوا على رقابنا ، وكسروا جيوشنا ، اليوم تغيرت الاحوال ، خرجوا والا عمرهم ما خرجوا »(٢٩).

الشخصيات المهزومة ، المحدودة ، بل يمكن القول غير الموجود ، والتي لا تقابلها شخصيات مناضلة ايجابية هي شخصيات الكاتب ، تتكرر ايضا في قصص اخرى ظهرت في مجموعة « ثلاثة اصوات » منشورات النظام ١٩٧٢ ، أي بعد مذابح ايلول ١٩٧٠ .